القصص الديني

الحلقة الثانية
قصص السيرة

وفاة الرسول

عبد الحميد جودة السحار

٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وما محمدٌ إلا رَسولٌ قدْ خَلَتْ من قَبْلِهِ الرُّسُل ، أفإن مـاتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُـمْ على أعقَـابِكم ، ومَـن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللّهَ شَيئا وَسَيَجْزِي اللّـه الشَّاكرين ﴾ .

(قرآن كريم)

١

عادَ رسولُ اللّه ﷺ إلى المدينة ، وفى ذاتِ ليلةٍ ، قامَ فى جَوفِ اللّيل ، ونادَى مَولاه (خادِمَه) أبا مُوَيْهِبَة ، وقال له :

ـ أسرِجْ لى دابَّتِى .

فقامَ أبو مُوَيْهِبَةَ يُعِدُّ له بَغْلَتَه ، ثمَّ ركِبَها رسولُ اللّه ، وقال :

ـ يا أبا مُوَيْهِبَة ، إنّى قد أُمِرْتُ أن أسْتَغْفِرَ لأهلِ هذا البَقيع ، فانطَلِقْ معِى .

وسارَ الرّسولُ إلى البقِيع ، وهو مكانُ مقابرِ المُسلمين فى المدينة ، وسار أبو مُوَيهبة خلفَ بَغْلَتِه ، حتى إذا بَلَغا البَقِيع ، نَزَلَ رسولُ اللّهِ عن بَغْلَتِه ، فأسْرَعَ أبو مُوَيْهِبَةَ إليها وأمسكها ، والتفتَ رسولُ اللّه ﷺ إلى القُبور ، وقال :

ـ السَّلامُ علَيكُم يا أهْلَ المَقابر ، ليهْنَ لكم (أى هنيئا لكم) ما أصبحتم فيه ، مما أصبح الناس فيه . أقْبَلَتِ الفِتَنُ كقِطَعِ اللّيلِ المُظلِمِ ، يتبَعُ آخِرُها أوّلَها ، الآخرةُ شَرٌّ من الأولى .

والتفت رسولُ اللّه إلى مولاه وقال :

ـ يا أبا مُوَيْهِبة ، إنّى قد أُوتِيتُ مفاتيحَ خزائنِ الدُّنيا والخُلدَ فيها ، ثم الجنّة ، فخُيِّرتُ بين ذلك وبين لقاء ربِّى والجَنَّة .

فقال له مولاه :

ـ بأبى أنتَ وأمِّى ، فخُذْ مفاتِيحَ خزائِنِ الدنيا والخُلدَ فيها ، ثم الجنّة .

فقال له رسولُ اللّه ﷺ :

ـ لا واللّه يا أبا مُوَيْهِبة ، لقدِ اخترتُ لقاءَ ربِّى والجنّة .

ووقَفَ رسولُ اللّه يستَغْفِرُ لأمواتِ المسلمين ، ثمَّ انصرَفَ فى جَوفِ اللّيل ، وخادمُه يسيرُ خلفَه .

٢

عادَ رسولُ اللّه ﷺ من البقِيع إلى الـدَّار ، فَوَجَـدَ زَوجَتَه عائِشة ، تشكو صُداعا ، وتقول :

ـ وارأساه .

فقال لها :

ـ بل أنا يا عائشةُ وارأساه .

وجلَـسَ إلى جِوارِهـا ، والتفـتَ إليهـا ، وقـال مُداعبا :

ـ ما ضرَّكِ لو مُتِّ قَبلِي ، فَقُمْتُ عَلَيكِ وكَفَّنتُكِ وصلَّيتُ عليكِ ودَفَنتُك .

قالت له عائشة :

ـ واللّه لكأنّى بك لو فَعَلتَ ذلـك ، لقـدْ رَجَعْتَ إلى بيتى ، فأعْرسْتَ فيه ببعضِ نسائك .

فتبسَّمَ رسولُ اللّـه ، ونـام وهـو يشـكو ألَمًا فى رأسِه ، وراحَ يدورُ على نِسـائِه ، كـان يَدْخُلُ علـى

كلِّ زوجةٍ ليلة ، وأحسَّ اشتِدادَ المرَضِ عليه ، فكانَ كلَّما دخلَ على زَوجةٍ من أزواجِه ، يقول :

- أين أنا غدا ؟

فَهِمَتْ زوجاتُه أنه يُريدُ أن يمكثَ في بيتِ عائشة ، لِتعتنِيَ به في مرضِه ، ولما كان في بيتِ زوجه ميمونة ثقُلَ عليه المرض ، فسألَ أزواجَه أن يُمرَّضَ في بيتِ عائشة ، فأذِنَّ له ، فأرسَلَ إلى عليِّ بنِ أبي طالب ، وعمِّه العبَّاس ، فلما جاءا خرج بينهما ، كان يستنِدُ عليهما ، وكان عاصِبًا رأسَه ، وظلَّ في سيرِه ، حتى دخلَ بيتَ عائِشة ، وبقِيَ به ، لا يخرج إلا للصلاة .

٣

خَيَّمَ اللَّيلُ ، واجتَمَعَ النَّاسُ فى المسجِد لصلاةِ العِشاء ، وارتفعَ صَوتُ بِلال عَذْبا :

ـ اللّه أكبر ! اللّه أكبر ! اللّه أكبر ! اللّه أكبر !

وأتَمَّ بلالٌ الأذان ، وانتظَرَ الناسُ خروجَ النبىّ ، ولكنه لم يخرُج ؛ أرادَ أن يذهبَ للصَّلاة ، فأُغْمِىَ عليه ، ثم أفاق ، فقال :

ـ أصلَّى النَّاس ؟

فقالت له عائشة :

ـ لا . هم ينتظرونك .

فطلَبَ رسولُ اللّه ﷺ ماءً لِيَتوضَّأ ، ولكنه لم يَقْوَ ، فقدْ أُغمِىَ عليه ، ولمّا أفاقَ قال :

ـ أصلَّى النَّاس ؟

فقالت له عائشة :

ـ لا يا رسولَ اللّه . هم ينتظِرونَك .

وأرادَ أن يتوضَّــأ ، فــأُغْمِيَ عليـــه ، والنَّـــاسُ مجتمعون ، ولمّا أفاقَ دخل بلالٌ عليه ، وقال :

ـ الصَّلاةُ يا رسولَ اللّه .

فقال ﷺ :

ـ لا أستطيعُ الصَّلاةَ خارجا ، مُـرُوا أبـا بكـرٍ فلْيُصلِّ بالنَّاس .

خافتْ عائشة ، لأنَّها تعلمُ أنَّه لن يقومَ أحـدٌ مقامَ رسولِ اللّه ﷺ ، إلاّ تشاءمَ النّاسُ بـه ، فـأرادتْ أن يختارَ رسولُ اللّـه أحـدًا غيرَ أبيهـا ليُصَلّـيَ بالنّـاسِ ، فقالت :

ـ إنَّ أبا بكرٍ رجُلٌ رقيق ، إذا قامَ مقامَك لم يُسمع النَّاسَ من البكاء .

فقالَ رسولُ اللّه ﷺ :

ـ مُروا أبا بكرٍ فليُصلِّ بالنَّاس .

فقالت عائشة :

ـ إنَّ أبا بكرٍ رجلٌ رقيق .

فقال رسولُ اللّه :

ـ إنّكنَّ صَوَاحِبُ يوسُف (أى إنكن تُظْهِرْنَ غيرَ ما تُخْفِين ، كما فَعَلَتْ زوجةُ العزيز لما أظهرَتْ للنِّساءِ اللاتى جَمَعَتْهُن ، أنها تُريد إكرامَهُنَّ بالضّيافة ، وإنما قصدُها أن ينظرنَ لحسنِ يوسُفَ عليه السلام ، فَيَعْذِرْنها فى حبِّه) ؛ مُروا أبا بكرٍ فليُصلِّ بالنّاس .

فخَرَجَ بلالٌ إلى النّاسِ يبكى ، فجاءَ إليه النّاسُ خائِفين ، وقالوا له :

ـ ما وراءَكَ يا بلال ؟

فقال بلال :

ـ إن رسولَ اللّه لا يستَطِيعُ الصَّلاةَ خارِجا .

فراحَ المسلمونَ يبكون .

٤

أرادَ الرسولُ ﷺ أن يخرجَ إلى النّاس ، فقال لنسائه :

ــ أَفِيضُوا عليَّ (أى صُبُّوا على) من سبع قرب ، من سبعِ آبارٍ شتّى ، حتى أخرجَ فأعهَدَ إلى النّاس .

وصبُّوا عليه الماء ، وخرج يستندُ على رجلٍ من أهلِه ، حتى إذا بلغَ المِنبَر ، جلس عليه ، فجاءَ إليهِ النّاسُ فرحينَ بخروجِه ، والتفوا حولَه ، فقال :

ــ اللّهمَّ اغفِر لشُهَداءِ أُحُدْ ، اللهمَّ اغفِر لشهداءِ أُحد . يا معشر المهاجرين ، إنكم أصبحتم تَزيدون ، والأنصارُ على هيئتها لا تزيد ، فأكرموا كريمَهم ، وتجاوَزوا عن مسيئهم .

أيها الناس ، إنّ عبدًا من عبادِ اللّه ، قد خيَّرهُ اللّه

بينَ الدُّنيا وبينَ ما عندَ اللّه ، فاختارَ ما عند اللّه .

فَهِمَ أبو بكرٍ أنَّ رسولَ اللّه ﷺ يتكلم عن نفسِه ، وأنه يذكرُ للنّاسِ أنه سيموت ، فبَكى من الحُزْن ، على فِراقِ رسولِ اللّه ، وما فارقَهُ أبدا ، قال :

ـ بل نحن نفدِيكَ بأنفُسِنا وأبنائنا وأموالنا .

فقال رسولُ اللّه ﷺ :

ـ إنَّ أمَنَّ النَّاسِ عليَّ في صُحبَتِه ومالِه أبو بكر ، ولو كنتُ متّخِذًا من أمّتِي خَلِيلا ، لاتّخَذْتُ أبا بكرٍ خَليلا .

وقال رسولُ اللّه :

ـ يأَيُّها النّاس ، مَن أحسَّ من نفسِه شيئًا فليقُم أدعو اللّه له .

فقام إليه رجلٌ فقال :

ـ يا رسولَ اللّه ، إنّي لَمُنافِق ، وإنّي لكَذُوب ،

وإنّى لَشَئُوم .

عجبَ الناسُ من ذلك الرجل ، الذى فَضحَ نفسَه ، وقال عمر :

- ويحَك أيها الرجل ، لقدْ سَتَركَ اللّه لو سَتَرتَ على نفسِك .

فقال رسولُ اللّه ﷺ :

- مَهْ يا بنَ الخطّاب ، فُضُوحُ الدُّنيا أهوَنُ من فُضوحِ الآخرة ، اللهمَّ ارزقه صِدْقًا وإيمانا ، وأذْهِبْ عنه الشُّؤمِ .

٥

دخلَ الرَّسولُ ﷺ دارَه ، وبَقِيَ بها يُصلِّي لا يقوى على الخروج ، وكان أبو بكر يُصلِّي بالنَّاس ، وفي صباحِ يوم الاثنين ، سمِعَ رسولُ اللّه أصواتَ النَّاسِ في المسجد ، فكشفَ سِتْرَ الحُجْرةِ ونظر ، فرأى المسلمينَ وهم صُفوفٌ في الصَّلاة يُصَلُّونَ خلْفَ أبي بكر ، فتبسَّمَ ، ففرِحَ النَّاسُ لمَّا رأوه ، وفَسَحُوا له ؛ حَسِبُوا أنَّه خارجٌ لِيُصَلِّي بهم ، وتأخَّرَ أبو بكر ، ليتركَ له مكانَ الإمامة ، ولكنَّ الرَّسولَ ﷺ أشارَ لهم أنِ استَمِرُّوا في صلاتِكم ، وأرخَى السِّتارَ .

واشتدَّ الوجَعُ على النَّبيّ ، فَوَضَعَ رأسَه في حِجْرِ عائِشة ، وكان عِندَه قَدَحٌ فيه ماء ، فكانَ يُدْخِلُ يَدَهُ في القَدَح ، ثمَّ يمسحُ وجهَهُ بالماء ، ويقول :

ـ اللّهمّ أعِنّى على سَكَراتِ الموت .

وثَقُلَ رأسُه ﷺ فى حِجْرِها ، فظَنّت أنّه غُشِىَ عليه ، فغطّتهُ بثوب ، فجاءَ عُمرُ والمُغِيرةُ بنُ شُعبة ، فاستأذَنا ، فأذِنَتْ عائِشةُ لهما ، فنظرا إليه ، وقال عمر :

ـ واغشياهْ ، ما أشَدَّ غَشْىَ رسولِ اللّه !

وقال المغيرة :

ـ يا عمر ، مات رسولُ اللّه .

فقال له عمر فى شِدَّة :

ـ كذِبْتَ ! إنَّ رسولَ اللّه ﷺ لا يموت ، حتى يُفْنِىَ اللّه المنافِقِين .

وخَرَجَ عمرُ يخطُبُ النّاسَ ، ويوعّد الذين يقولون إنَّ رسولَ اللّه قد مات . وجاءَ أبو بكر ، ودخلَ على الرّسول ، ورفَعَ عنه الغِطاء ، وقال :

ـ إنّا للّه وإنّا إليه راجعون ... مات رسولُ اللّه .

وقَبّلَ رأسَه .

ثمَّ قالَ فى حُزْن :

ـ وانَبيَّاهْ .. واصَفِيَّاه .. واخَليلاه !

وخرجَ أبو بكرٍ إلى النَّاس ، وعُمَرُ يخطُبُ النَّاس ويقولُ إنَّ رسولَ اللّه لا يموتُ حتى يُفنِيَ اللّه المنافِقِين ، فقالَ له أبو بكر :

ـ اجلِسْ يا عُمر ، اجلس يا عمر !

ثم قال أبو بكر :

ـ أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللّه ، وأشهدُ أنَّ محمَّدا رسولُ اللّه . أمَّا بعد ، فمنْ كان منكم يعبُدُ محمَّدا فإنَّ محمدا قد مات ومن كان يعبُدُ اللّه فإنَّ اللّه حيٌّ لا يموت .

وصَمتَ قليلا ، ثمَّ قرأ من القرآن :

« وما محمَّدٌ إلاَّ رسولٌ قد خَلَتْ من قبْلِه الرُّسُل ، أفَإن ماتَ أو قُتِلَ انقَلَبْتُمْ على أعْقابكم ، ومَن ينقَلِبْ على عَقِبَيهِ فلنْ يَضُرَّ اللّه شيئا ، وسَيَجْزِى اللّه الشَّاكِرين » .

وتَيَقّنَ النّاسُ أنّ رسولَ اللّه ﷺ قد مات ، فأجهَشُوا بالبُكاء ، وارتَفَعَ صَوتُ فاطِمة تذْكُرُ محاسِنَ أبيها ، فزَادَ ذلك في حُزنِ النّاس .

أبتاه يا أبتاه ! .. أبتاه .

أجابَ ربّاه دعاه .. يا أبتاه .

إلى جبريلَ ننعاه .. يا أبتاه .

مِن ربِّه ما أدناه .. يا أبتاه .

وجاءَ أوانُ الصّلاة ، فقامَ بلالٌ يؤذّن :

اللّه أكبر ، اللّه أكبر ! اللّه أكبر ، اللّه أكبر !

أشهدُ أن لا إلَه إلاّ اللّه . أشهدُ أن لا إلَه إلاّ اللّه .

أشهدُ أنّ محمّدا ..

وتذَكّر بلالٌ رسولَ اللّه الميّتَ في دارِه ، فَخَنَقَتْه دموعه ، وبكَى المسلمونَ حتى ارتَجّتِ المدينةُ بالبُكاء ، ولفّها حُزنٌ عميق .